**الفكر الجزائري المعاصر ــ مالك بن نبي نموذجا ــ**

في الحقيقة أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر، كان أبشع استعمار عرفه التاريخ على الإطلاق ، فهو لم يكن كغيره يقتصر جهده على نهب ثروات البلاد واستغلال الأرض، بل تجاوز ذلك للدخول داخل الإنسان الجزائري وتدميره من الداخل، ولم يكتف بتدميره جسديا عن طريق الجوع والعطش والمرض والبرد والتشريد والتنكيل والتعذيب، بل حاول تدمير شخصية الإنسان الجزائري والقضاء على مقوماتها الوطنية، الثقافية والفكرية والنفسية والاجتماعية والحضارية، فهو لم يكتف بالاستيطان الجغرافي للجزائر، بل كان يعمل جاهدا للاستيطان داخل الإنسان الجزائري. ولكن بالمقابل كانت المقاومة الجزائرية، قد انطلقت منذ اللحظة الأولى متصدية للاستعمار الفرنسي، واستمرت المقاومة عدة عقود، وامتدت في كل أرجاء الوطن، إلى غاية قيام الحرب العالمية الأولى. وكانت الجزائر مع بداية القرن العشرين وبعد ما يقرب من القرن منذ الاحتلال، عمّها الفقر والجهل والأمراض والبؤس والحرمان، نتيجة سياسة الاستعمار العنصرية التي انتهجها في الجزائر منذ الوهلة الأولى، وفي خضم هذا الواقع التاريخي المأساوي الذي عاشه الشعب الجزائري في بداية القرن العشرين كان مولد مالك بن نبي.

أولا: **من هو مالك بن نبي ؟**

ولد مالك بن نبي في أول يوم من شهر يناير سنة 1905 م بمدينة قسنطينة، لعائلة جد فقيرة، تكفل به عمه الأكبر الذي كان ميسور الحال، والذي كان مقيما بقسنطينة إلا أن المنية لم تمهله طويلا، وبعد وفاته عاد مالك مع أرملة عمه إلى مدينة تبسة حيث يقيم والده. أدخل إلى الكتّاب ليتعلم القرآن الكريم، ثم دخل إلى المدرسة الابتدائية بتبسة وبعد ذلك التحق بقسنطينة حتى تحصل على الشهادة الابتدائية، وقد واصل تعليمه الابتدائي إلى غاية 1918، ثم تقدم مالك للامتحان لدخول المدرسة الثانوية سنة 1920، وتحققت أحلامه بنجاحه. بعد انقضاء أربع سنوات من الدراسة بالثانوية تخرج مالك بن نبي سنة 1925، في سبتمبر 1930عزم الرحيل إلى فرنسا، فور وصوله لفرنسا سجل نفسه للمشاركة في امتحانات القبول بمعهد الدراسات الشرقية، ليتأهل بعد ذلك لدخول كلية الحقوق، لكن تم رفض ملفه. قرر ابن نبي الالتحاق بمدرسة اللاسلكي لدراسة هندسة الكهرباء، وكان تأثير هذه المدرسة عليه قد شكل منعطفا جديدا في حياته، يقول مالك:« فكانت هذه الفترة الدراسية بالنسبة لي لا تقف عند حدود تهيئتي لدخول مدرسة اللاسلكي، بل غيرت جذريا اتجاهي الفكري، إذ أنها أسكنت في نفسي شيطان العلوم ». عاش ابن نبي

في عمق المجتمع الفرنسي، في خضم هذا الواقع الجديد قرر سنة 1931 الزواج من فرنسية تعرف عليها في نادي جمعية الشباب المسيحي في باريس، الذي كان يتردد عليه وتسمت بخديجة بعد إسلامها، وفي هذه الظروف تعرف على شخصيات بارزة سياسية وثقافية، لكن الشخصية التي سيلتقي بها مالك في باريس ويكون لها الأثر الواضح في توجهاته هو صديقه ( حمودة بن الساعي)، ويعترف مالك بأنه:« مدين لحمودة بن الساعي باتجاهه ككاتب متخصص في شؤون العالم الإسلامي»، انتقل مالك بن نبي من فرنسا إلى مصر سنة 1956، واستقر بالقاهرة، وعندما نالت الجزائر استقلالها سنة 1962، قرر ابن نبي العودة إلى أرض الوطن التي طالما حلم بالعودة إليها، وقد عين مديرا عاما للتعليم العالي، ولم يطل مقامه بهذا المنصب، فقدم استقالته منه سنة 1967، ليتفرغ ويواصل مسيرته الفكرية، نظم الندوات في بيته للأساتذة والطلبة، وشارك مشاركة فعالة في ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تنعقد في الجزائر سنويا، وبقي مواصلا جهاده وكفاحه بالفكرة والكلمة والقلم إلى أن وافته المنية يوم 31 أكتوبر 1973 بالجزائر العاصمة.

**ثانيا: مؤلفات مالك بن نبي**

ألف مالك بن نبي ما يزيد عن عشرين كتابا، من أبرزها: الظاهرة القرآنية ،شروط النهضة ، وجهة العالم الإسلامي، الفكرة الإفريقية الآسيوية، مشكلة الثقافة، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، فكرة كومنولث إسلامي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ميلاد مجتمع، في مهب المعركة، مذكرات شاهد للقرن: الجزء الأول " الطفل" ، الجزء الثاني "الطالب"، المسلم في عالم الاقتصاد، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، بين الرشاد والتيه (هو عبارة عن مجموعة مقالات جمعت وطبعت بعد وفاته سنة 1978 )

**ثالثا: المشروع النهضوي لمالك بن نبي**

يرى مالك بن نبيأن جميع مشاكل وأزمات العالم الإسلامي ما هي في الحقيقة إلا فرع لأصل واحد إنها المشكلة الحضارية، حيث قال: « إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته، ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل

التي تبني الحضارات أو تهدمها». وقد اعتبر ابن نبي أن بناء حضارة وتأسيسها يكون من خلال تركيب عناصر ثلاثة: الإنسان والتراب والوقت، ولا يتم هذا التركيب إلا من خلال ما يسميه بالفكرة الدينية.

**1. عناصر الحضارة:** للحضارة حسب ابن نبي ثلاث عناصر أساسية تتركب منها: إنســـــــــــان + تــــــــــــــــــراب + وقـــــــــــــــــت.

**أ. الإنسان:** هو أهم هذه العناصر على الإطلاق، باعتباره هو العنصر الأساسي في بناء الحضارة، ولا يغير الإنسان التاريخ إلا إذا غيّر نفسه:« وإنها لشرعة السماء: غير نفسك تغير التاريخ». والإنسان حسب مالك بن نبي يؤثر في المجتمع بثلاث مؤثرات رئيسية أولا: بفكره، ثانيا: بعمله، ثالثا: بماله، وبالتالي يجب أن نبحث في توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال.

في مجال توجيه الثقافة يؤكد مالك بن نبي على العناصر الجوهرية اللازمة للثقافة وهي: عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية، وعنصر الجمال لتكوين الذوق العام، والمنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام، وأخيرا التقنية أو الصناعة. فالأخلاق تعني قوة التماسك اللازمة للأفراد، هذه القوة التي استطاعت بناء المجتمع الإسلامي الأول. أما الجمال حسب مالك بن نبي له أهمية اجتماعية هامة ، لأنه بمثابة المنبع الذي تنبع منه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع. وبالنسبة للمنطق العملي فنحن حسب ابن نبي أحوج ما نكون إلى هذا المنطق في حياتنا، لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه شيء يكاد يكون معدوما. وأخيرا التقنية أو الصناعة وهي بالنسبة لابن نبي كل الفنون والمهن والقدرات، وتطبيقات العلوم تدخل في مفهوم الصناعة، ومن المسلم به أن الصناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه، وربما لبناء مجده، ولكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه.

أما بالنسبة لتوجيه العمل فيعني عند مالك بن نبي سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد فإعطاء ثلاثة حروف من الأبجدية عمل، وتقبل هذه الحروف عمل، وإزالة أذى عن الطريق عمل، وإسداء نصح عن النظافة أو الجمال عمل، وغرس شجرة عمل، واستغلال أوقات فراغنا في مساعدة الآخرين عمل.

أما بالنسبة لتوجيه المال، يفرق مالك بن نبي بين مصطلحي الثروة ورأس المال، فالأول يستخدمه الفرد في ميدانه الخاص ، بينما الثاني ينمو ويتحرك في محيط أكبر من محيط الفرد. والثروة مال ساكن ورأس المال مال متحرك، والمطلوب من المسلمين توجيه المال وترشيده، فالقضية ليست في تكديس الثروة، ولكن في تحريك المال وتنشيطه، بتوجيه أموال الأمة البسيطة، وذلك بتحويل معناها الاجتماعي من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك، ينشط الفكر والعمل والحياة في البلاد.

**ب. التـــراب**: يرى ابن نبي أن التراب هنا لا يقصد به التراب المنظور له من حيث خصائصه وطبيعته، ولكنه يعني بالتراب هنا :« من حيث قيمته الاجتماعية، وهذه القيمة الاجتماعية للتراب، مستمدة من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة، وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط»

**ج. الوقــــت**: بتحديد الوقت عند ابن نبي يتحدد معنى التأثير والإنتاج، وهو معنى الحياة الحاضرة الذي ينقصنا، هذا المعنى الذي لم نكسبه بعد، والداخل في تكوين الفكرة والنشاط، في تكوين المعاني والأشياء. إذن: « فنحن في العالم الإسلامي نعرف شيئا يسمى الوقت، ولكنه الوقت الذي ينتهي إلى عدم، لأننا لا ندرك معناه، ولا تجزئته الفنية، لأننا لا ندرك قيمة أجزائه من ساعة ودقيقة وثانية، ولسنا نعرف إلى الآن فكرة الزمن الذي يتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ »

ويؤكد ابن نبي على أن قيمة الوقت أغلى من قيمة المال، فالإنسان إذا ما ضيع ماله يمكن أن يسترجعه، لكن الوقت يستحيل استرجاعه إذا مضى:« إن العملة الذهبية يمكن أن تضيع، وأن يجدها المرء بعد ضياعها، ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة، ولا أن تستعيدها إذا مضت»

**2. أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة:** إن بناء الحضارة يعتمد على هذه العناصر الثلاثة، ولكي تتوحد هذه العناصر الثلاثة المتناثرة، يؤكد ابن نبي على دور الفكرة الدينية، حيث يعتبرها العنصر المازج والمركب لعناصر الحضارة الثلاثة :« إن هناك ما يطلق عليه مركب الحضارة أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، نجد أن هذا المركب موجود فعلا، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ »

**3. الدورة الحضارية:** يؤمن مالك بن نبي بنظرية الدورة الحضارية، والحضارة عنده تنتقل من مكان لآخر، ومن بقعة لأخرى، وتتمثل أطوار الدورة الحضارية في:

**الطــــور الأول:** يشكل هذا الطور المرحلة الأولى من الدورة الحضارية، وهو ما يطلق عليه ابن نبي مرحلة الروح، وهي تمثل خطا تصاعديا، وابتدأت من غار حراء إلى غاية موقعة "صفين" بين علي ومعاوية عام 38 م، وفي هذه المرحلة:« يتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في جسده، ويخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح».

**الطــــور الثاني:** يمثل هذا الطور المرحلة الثانية من الدورة الحضارية، وفيه تستبدل سلطة الروح بسلطة العقل، وهنا تبدأ الحضارة الإسلامية بالتوسع والانتشار فوق الأرض، وكذلك بظهور العلماء أمثال الفارابي، وابن سينا، وابن رشد إلى غاية ابن خلدون، ومرحلة العقل هذه في نظر ابن نبي تمثل خطا أفقيا مستقرا يأتي مباشرة بعد الخط الصاعد الذي كانت تمثله مرحلة الروح، هذه الأخيرة تصبح في هذا الطور لا تسيطر على الغرائز تدريجيا، وهو ما يؤدي إلى انخفاض في مستوى أخلاق المجتمع، ونقصا في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية.

**الطـــور الثالث:** إن هذا الطور يمثل مرحلة الانحطاط وسيطرة الغريزة واختفاء العقل، وهذا الطور الثالث بالنسبة للحضارة الإسلامية يمثل فترة ما بعد ابن خلدون، والذي يتميز بالانحطاط والتخلف بسبب تراجع تأثيرات الروح والعقل، و تسود في هذ المرحلة: « الفردية، تبعا لتحرر الغرائز، وتتفسخ شبكة العلاقات الاجتماعية نهائيا وهو ما يطلق عليه في التاريخ عصر الانحطاط ، كذلك العصر الذي هيأ في المجتمع الإسلامي ظروف القابلية للاستعمار والاستعمار».

إذن مالك بن نبي يرى أن أي حضارة تقع بين حدين اثنين: الميلاد والأفول، والمنحنى البياني يبدأ بالضرورة من النقطة الأولى في خط صاعد، ليصل إلى النقطة الثانية في خط نازل، وبين الطورين يوجد بالضرورة اكتمال معين ، هو طور انتشار الحضارة وتوسعها**.**